مقدمة

من البدهى أن نتفق ـ أولا ـ على مسلمات أساسية تبدأ مرتكزاتها من طبيعة الموروث الذى يمثل ذاكرة الأمة ومخزون مبدعيها، بما يضمنه لهم من أصالة الإبداع باعتبارها واحدا من مقومات الفكر والوجدان، ومن مداخل صدق التجربة، ونجاح عملية الصياغة والتشكيل الجمالى والتوصيل الإنساني.

من هذا المنطلق جاءت فكرة التواصل فى حلقات هذه الدراسات التى بدت دافعة ـ بذاتها ـ ومدفوعة إلى محاولة استجلاء الحقيقة فى تمرس شعرائنا الكبار بأساليب الصياغة الشعرية، بدءا من اعترافهم بمنزلة الموروث، وتقدير أهميته، من منظور فكرة الأول الذى لم يترك للآخر شيئا ـ على حد زعم بعض القدماء ـ وانتهاء إلى بحثهم عن دوائر التفرد ومقاييس التميز والنبوغ فى الظاهرة الإبداعية، على اختلاف ما بينهم من الرؤى والتوجهات، وبقدر ما يعكسه اختلاف المراحل والفترات، وتباين الثقافات.

ومنه أيضا ـ أى المنطلق ذاته ـ تأتى فكرة الطرح النظرى مشفوعة بالنظر التحليلى والرؤى التطبيقية التى توظف الأدوات النقدية فى متابعة ظاهرة التحول الإبداعى فى ظل مفهوم قضية المشترك الثقافى والإبداعي، وما تدفع إليه من صور التفرد على أسس امتلاك الأداة أو المواهب الذاتية، أو القدرة على الانخراط الفعلى فى دوائر التجارب على المستويات الفردية، إلى المجتمعية، إلى القومية، إلى الإنسانية على ما بينها جميعا من صور التراكب والتداخل والتشابك والتعقيد.

فى هذه المساقات ـ وما يشبهها ـ تأتى فكرة الطرح المنهجى لهذه الدراسة، مع إعادة القراءة النصية لشعرنا القديم وصولا إلى تحليل الطبيعة النوعية للمشترك بين أعلامه الكبار، مع محاولة الإبانة عن مستوى هيمنة الموروث، أو درجة الاستعباد، أو صور الرقابة، إلى بيان المفارقات بين تلك المستويات، إلى مشاهد الاحتفاظ بمقومات الإبداع ومجالات الإضافة والابتكار؛ وهى المسألة التى تتكشف ـ بجلاء ـ فى دراسة مدارس الإبداع الشعري، ومحاولة تحليل ما بينها من تداخلات تحكى فصولها مدارس المجددين بأصولها التراثية الضامنة للأصالة، ومدارس المحافظين بميلها ـ أحيانا كثيرة ـ إلى الجديد ضمانا للانخراط فى تيار المعاصرة للمعاصرة.

لعل الاقتراب من البحث ـ بهذا المعنى ـ يهدى إلى حلول واضحة لتلك المعادلات المركبة، لاسيما حين تندفع إليه أجزاء من هذه الدراسة الموسعة القائمة على عدة اعتبارات منهجية من حق القارئ أن يتأملها من حيث :

١ـ أن دراسة النص باتت أولى بالمراجعة والتأمل باعتبار أن أية قراءة ستترك ـ على الأرجح ـ تداعيات مهمة تمثل إضافة قابلة للمناقشة والحوار.

٢ـ أن تغييب الموروث فى دراسة شعرنا العربى تظل مغامرة غير مأمونة النتائج، باعتبار الإبداع نبتا شرعيا له مقوماته وأصوله ومرتكزاته، وله ـ أيضا ـ صوره وأشكاله التى لا تنشأ من فراغ بقدر ما تتجانس مع الواقع وتكشف عن طبائع الأنماط المجتمعية.

٣ـ أن احتفاء المبدع بتراثه يظل مؤشرا من مؤشرات اعتداده بثقافته من جانب، وجسارته على إظهار تجليات الذات وتميز الرؤية الفردية من جانب آخر.

٤ـ أن القاسم المشترك بين كبار شعرائنا لا يحجب ـ بأية صورة ـ ظهور الفروق الفردية التى تصدر عن الموهبة الخاصة، ويعكسها دفء التجربة، مع تميز الإبداع والتمكن من الملكة والسيطرة على مقومات الومضة الإبداعية.

٥ـ أن مقومات التفاعل المتجدد مع شعرنا العربى تأتى من التحول إلى إعادة قراءة إبداعات شعرائه فى سبيل الكشف عما صدروا عنه من نظريات وتجارب لا يتناقض فيها المكون الثقافي، مع العمق الوجداني، مع طبيعة الرؤية والمفهوم النقدي، فى تداخل القياسات المنطقية والإبداعية فى عالم الشعراء الكبار.

لعل أجزاء هذه الدراسة تفى بتحقيق منطلقاتها، وصولا إلى نتائج أكثر إقناعا، بما قد يفتح أبوابا للمزيد من الإضافات المنهجية الواعدة فى هذا السياق وغيره، احتراما لثقافة الاختلاف، وتقديرا لمنطق التعددية فى سبل المعالجة وطرح القضايا والأفكار فى زحام المتغير الثقافى والنقدي.

والله ـ سبحانه ـ ولى التوفيق.

د. عبدالله التطاوي

القاهرة ٢٠٠٦م

obeikandl.com